# قراءة في فلسفة اللامعقول
# من لاعقلانية نيتشه إلى لاعقلانية فيرابند

الأستاذ شادلي هواري، جامعة تيارت

**ملخص:**

سادت العقلانية كل نماذج الفهم ومقولات التفكير، واعتبر العقل أساس الحقيقة الذي يكشف المجهول وينبر طريق العلم في فهم الطبيعة والمجتمع،هذا التصور الشامل الذي يؤمن بالعقل إيمانا مطلقاً،أدي إلى ظهور تيار معاكس كشف عن دلالات أخري للعقلانية،بل فتح مجال اللامعقول،وإعادة بناء علاقة بين المعقول واللامعقول وفق تصور يضع المعقول في محك التساؤل الفلسفي النقدي،وحوَل الفكر من الحديث عن العقل الظافر المنتصر كما عبرت عنه تيارات العقلانية الكلاسيكية إلى العقل المنكسر المحدود كما صورته الاتجاهات المعاصرة التي أسست لمعالم فكر فلسفي مختلف تبدلت فيه النظرة إلى نماذج العقلانية وتم إعادة الاعتبار لمقولات التعددية والاعتراف بالخصوصية الفكرية لمجالات توصف عادة باللامعقول كالدين والفن وجميع التقاليد المختلفة.

ويعود الفضل في تقديم هذا الطرح لفيلسوف المطرقة "فريدريك نيتشه"، الذي أسس لنزعة تفكيكية رافضة لمشروع الحداثة الغربية القائمة على العقلانية العلمية، في صورتها المادية، إضافة إلى تداعيات أكثر خطورة سجلت على مستوي الفكر تتمثل في انحصار الذات وسجنها داخل إطار نسقي جامد، وبذلك مثلت فلسفة "نيتشه" تحول كبير وضعت كل معارف وقيم الفلسفة الغربية وتصوراتها موضع الشك، واعتبرتها مجرد تأويلات وأوهام سرعان ما تتحول إلى أصنام.

كان لهذا الطرح تأثيراً قوياً على فلسفة "بول فيرابند" الذي أبدي إعجابا كبيراً بفلسفة"نيتشه"، واستخدم نفس الطريقة التفكيكية في رفض المنهج الصارم واليقين العلمي واعتبرها وسائل دوغمائية، كانت سبباً في إقصاء معارف أخري، وتقاليد مرتبط بالمجتمع لها أهمية بالغة في تطور العلم.

**الكلمات المفتاحية:** لا عقلانية، الفوضوية، عقلانية، العلم، الحقيقة، الصيرورة، إرادة القوة.

**Abstract:**

Rationality prevailed in all the categories of understanding and thinking models, and the mind was considered as the basis of the fact that revealed the unknown and illuminated through science in understanding the nature and society. This comprehensive vision that believed in the mind in an absolute manner, led to the emergence of an opposite trend that detected other indications of rationality, but it opened an area to the absurd and rebuilt a relationship between the reasonable and unreasonable, according to an imagination that put the reasonable into critical philosophical questioning, and changed the thought from the talk on the mind, the triumphant victor,as expressed by the classical rationalism currents to the refractor limited mind as portrayed by the contemporary trends that founded to a different philosophical thought that changed the theory to rationality models. There was the re-consideration of the arguments of pluralism and the recognition of intellectual privacy of domains commonly prescribed as absurd such as religion, art and all the different traditions.

The favour in presenting this different proposal goes back to the philosopher “Frederick Nietzsche” who founded a deconstruction trend, rejecting the project of Western modernity based on scientific rationality in its physical image. In addition to more serious repercussions recorded at the level of thought represented in the self-receding of the self and its imprisonment within a rigid systematic framework, and thus Nietzsche's philosophy represented a big shift and put all the knowledge and values of Western philosophy and its perceptions into question, and considered it as just interpretations and illusions that quickly turn to idols.

This argument had a strong influence on the philosophy of "Paul Feyerabend" who showed great admiration to the philosophy of "Nietzsche" and used the same method of deconstruction in the rejection of the process of the scientific certainty considering it dogmatic ways, through which other knowledge and traditions of extreme importance in the development of science, associated with the community, were excluded.

**KeyWord**: Irrationalism, Anarchism, Rationalism, Science, Knowledge, Truth, Happening, Will force.

يوصف اللامعقول في أبجديات الفكر العقلاني بذلك النمط من التفكير الساذج الخارج عن النسق العقلاني المنطقي، والذي لا يتفق مع مبادئ العقل، فهو يشكل في نظر أنصار العقلانية

مظهر من مظاهر انتكاس العقل والعلم معاً، والتفلسف عندهم لا يكون عقلانياً إلا بإتباع البناء الشكلي المتماسك، لقد ترسخ هذا الطرح عبر تاريخ الفكر الفلسفي فالفلسفة اليونانية ومند بداياتها الأولى عرفت توجهاً عقلانياً في الفكر والخطاب والفعل ووضع ثقة كاملة في العقل ومقولاته ونصب نفسه حكماً لكافة أشكال اللامعقول فأصبحت العقلانية مفهوماً أساسياً حظيت باهتمام الفلاسفة والمفكرين، على امتداد تاريخ هذا الفكر، واستمر هذا البحث في الفلسفة الحديثة ليقدم لنا تفسيرات شاملة قائمة على أساس المعقولية، التي كانت دليل على وجودها، واعتبرت العقل عنوان الحقيقة الوحيد الذي يكشف المجهول، وينير طريق العلم في فهم الطبيعة والإنسان وتسخير هذا الفهم لصالح البشرية.

لقد مست العقلانية كل نماذج الفهم ومقولات التفكير، خاصة تلك التي صاغتها عقلانية الحداثة مع لحظة التأسيس الديكارتية، وتوابعها المعرفية، لكن ومن جهة أخري يكشف لنا تاريخ الفكر الفلسفي، تعدد دلالات وصياغات العقلانية وتنوعها داخل مجال المعقولية نفسها، ويفتح مجال أمام اللامعقول، ويعيد بناء علاقة بين المعقول واللامعقول وفق تصور يضع المعقول في محك التساؤل الفلسفي النقدي، ويحولنا من الحديث عن العقل الظافر المنتصر كما عبرت عنه تيارات العقلانية الكلاسيكية، إلى العقل المنكسر المحدود كما صورته الاتجاهات المعاصرة، التي أسست لمعالم فكر فلسفي مختلف تبدلت فيه النظرة إلى نماذج العقلانية، وتم إعادة الاعتبار لمقولات التعددية والاعتراف بالخصوصية الفكرية، لمجالات توصف عادة باللامعقول كالدين والفن وجميع التقاليد المختلفة، والظفر بالمساءلات النقدية لنماذج العقل بمعناه الحداثي، ولقيم التنوير الفلسفي ونظرياته في التقدم الحضاري. ومن بين هذه المحاولات ما قدمه " بول فيرابند"(Paul Feyerabend) من تصور مثّل به مرحلة أخرى من مراحل التفكير الفلسفي المعاصر المتفتح على مختلف التقاليد والقيم الفكرية المتعددة. لذا حاولنا في هذا المقال تبيان مدي تأثر "بول فيرابند" بالفلسفةالعدميةعند"نيتشه"(Nietzsche) التي تطرقت بالنقد لمركزية العقل.

**فما هي دلالات فهم اللامعقول في الفلسفة "نيتشه"؟ وإلى أي مدي أثرت في فلسفة اللامعقول عند "فيرابند"؟**

يعد نيتشه من الفلاسفة الألمان الدين أسسوا وبصورة واضحة لنزعة جديدة تفكيكية رافضة لمشروع التحديثي الغربي، القائم على العقلانية العلمية في صورتها المادية، هذه العقلانية شكلت واجهة المشروع العلمي في العصر الحديث، وأصبح العلم يشكل أرقي أشكال المعرفة الإنسانية بسبب قوانينه الموضوعية والدقيقة، والتي جعلت من مجتمع الحداثة فضاء خالياً من كل غائية وصار العقل المعيار الأساسي في ضبط النشاط العلمي والتقني، بل امتد أيضاً إلى النشاطات الثقافية والاجتماعية وإلى أنظمة الحكم والتسيير الإداري، وإلى التحكم في السلوك والعواطف. فصيغت أنساق ثابتة وأسست أنظمة معرفية تستند إلى نقطة ثبات غير قابلة للتغيير، بل أصبحت هذه الأنظمة معياراً أساسياً للعلمية. في ظل هذا التصور الغربي الذي رسمته الفلسفة الغربية الحديثة ممثلة في التيار العقلاني سواء في جانبها الثوري الإيجابي، الذي أدي إلى التقدم العلمي الحضاري وما ترتب عليه من ثورات تكنولوجية مهمة أسهمت في خدمة البشرية وجانبها السلبي، الذي دفع بالعقل إلى التحول لمجرد أداة أنتج ما يسمي بأزمة الحداثة وتداعياتها الراهنة، من أحداث دامية أصبحت تهدد البشرية، إضافة إلى تداعيات أكثر خطورة سجلت على مستوي الفكر تتمثل في انحصار الذات، وسجنها داخل إطار نسقي جامد، جاءت فلسفة "نيتشه" لتمثل لحظة تبلور وتحول كبير وضعت كل معارف وقيم الفلسفة الغربية وتصوراتها موضع الشك، موجهاً مطرقته النقدية لمختلف المفاهيم الكبرى كالمعرفة، والعقلانية، والموضوعية حيث مزق الحجج والأقنعة عنها، ليفتح مجال اللامعقول، ويعبد طريق النقد الفلسفي لكثير من الفلاسفة من بعده أمثال ميشال فوكو (Michel faucault) و"جاك ديردا" (Jacques derrida) جيل دولوز(Gilles deleuze) ووصولاً إلى "بول فيرابند"(Paul feyerabend).

لقد انتبه "نيتشه" لخطورة الثوابت التي وضعها فكر الحداثة على الفكر الإنساني الحر وعلى إرادة الإنسان في الخلق والإبداع، فقدم مساءلات نقدية للتخلص من هيمنة العقل، ويفتح مجال اللاعقل واللانظام واللاحقيقة مقتحماً فكرة مركزية العقل الأوربي مزعزعاً أركانه، ممهداً الطريق نحو اللاعقلانية، والتي يري فيها خلاصاً للإنسان من أصنام وأوهام المقدس، مؤكداً "أن كل ما ينتجه

العقل من مفاهيم وأنظمة فلسفية وعلمية هو مجرد تأويلات وأوهام سرعان ما تتحول إلى أصنام، إن الحقيقة هي شيء أخر لا يمكن لكل هذه المنظومات والأنساق الإبانة عنها، بل على العكس، إنها تتكاثف لتضع دون الحقيقة حججاً صلدة، يصعب إزاحتها أو زحزحتها بغير هدمها"[1]. فكل المفاهيم التي يدعي أصحابها أنها يقينية بحكم العقل مثل العلية والحتمية، لا تخلوا من المصلحة والتحيز، فهي مجرد أوهام وأساطير ابتدعها البعض لتمكين سيطرتهم وسلطتهم على الغير، وقبولنا لأفكار الآخرين هو مجرد خضوع "لإرادة القوة"[*]، وليس انتصاراً لمنطق العقل، هذا التصور له ما يشابهه في فلسفة "فيرابند" عند ما يعتبر العقلانية وسيلة من وسائل الإقصاء، لكل المحاولات المعرفية التي تقوم بها التقاليد الأخرى، والتي توصف باللاعقلانية، كالأسطورة والفن والدين، إذ يقول:"إن الدين يدعون بالعقلانية اخترعوا مبررات لتفضيل ما يعتقدون به، وأضفوا عليه صفة العقلانية،وهم في ذلك يقصون كل التجارب الإنسانية"[2] .

إن الحقائق والتفسيرات العقلية تخضع لتوازن القوي، والحقيقة التي يدعيها أصحاب العقلانية لا تماثل الواقع، ولا تقترب منه وإنما هي انعكاس لإرادة القوة فالمعرفة عند نيتشه هي أداة للقوة، وكلما تزداد هذه القوة تزداد معها المعرفة، هكذا يتخذ نيتشه من إرادة القوة مبدأ لسن شريعة التأويل الفاعل وأساس لتوكيد الحياة وتقويمها خاصة وأن الحياة هي المبدأ الذي من أجله تقوم إرادة القوة، بمنح العالم والأشياء مدلولاتها، فحيثما تتغير شروط الحياة والوجود تتغير معها الدلالة المعرفية، " فالمعرفة عملية تفسيرية تقوم على احتياجات حيوية وتعبر عن إرادة السيطرة وعلى فيضان الصيرورة المبهم ويذهب نيتشه إلى أن المعرفة النافعة خليط لا شكل له من الانطباعات والعلاقات، فإذا تصورنا أن هذا الخليط يمثل الواقع الحقيقي أو الصيرورة نكون قد جانبنا الصواب"[3].فالوجود الحقيقي الذي نسعى لمعرفته يتجسد على مستوي المظاهر لا على مستوى الجواهر، وهو تعبير عن أوهام واعتقادات مختلفة، فحقيقة الشيء في ذاته تختلف عن تصوراتنا له، فما نعتقد أنه معرفة هو مجرد تأويلات محمل بخلفيات ثقافية واجتماعية وسياسية، فالحقائق العلمية والفلسفية وهم وزيف لا تعكس المعرفة الخالصة بقدر ما هي وسيلة للتأقلم فرضتها الحاجة،"إن العقلنة الفلسفية والعلمية للواقع هي وسيلة ذرائعية لتيسير الحياة الإنسانية، وتدل العقلنة على الكشف عن حقائق مطلقة أو جوهرية للعالم"[4] .

تجسد هذا التصور لدي فلاسفة العلم المعاصرين، حيث بين "هانسون"[**](Hanson) أن تجاربنا ومعطياتنا الحسية، إنما محملة بالنظرية، وهي مجرد تأويلات تشكلت بواسطة الخلفية الثقافية للباحث، فلا وجود على الإطلاق لمعطيات ثابتة محايدة، فما يكون ملحوظاً لا يمكن ملاحظته كواقعة مفردة، بل يمكن ملاحظته فقط من خلال ارتباطه بوقائع أخري وكما يقول فتجنشتين(Wittgenstein)" فكما لا نستطيع تخيل الأشياء المكانية خارج المكان، ولا الأشياء الزمانية خارج الزمان كذلك لا نستطيع أن نتخيل شيئاً معزولا عن ارتباطه بأشياء أخري"[5].

يؤيد "فيرابند" تصور "هانسون"، فكل ما يتم ادراكه لا يخرج عن إطار الحمولة الثقافية والاجتماعية التي تشكل الخلفية العامة لمفاهيم النظرية العلمية، "فكل ما هو مدرك يعتمد على ما هو معتقد"[6].

إن العقل مهما بلغ من درجة اليقين غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها، وما ندعيه معرفة هو مجرد وهم لا يحمل الحقيقة، هذه الأفكار شكلت نقاط تداخل بين فلسفة "نيتشه" وفلسفة "فيرابند"، ما يبين مدي تأثر هذا الأخير "بنيتشه" الذي يؤكد من جهته أن معارفنا تزور الواقع، ولا تقدمه على حقيقته، فهو يرفض موقف الفلاسفة الذين يفسرون العالم على أنه مظهر مطلق ثابت، فلا يوجد أشياء تحمل الحقيقة في ذاتها، وإن وجدت هذه الحقيقة يتعذر عنا معرفتها، والعالم الحقيقي ما هو إلا عالم الظاهري الذي تم صياغته وتنظيمه حسب متطلبات المنفعة والحياة، والصورة التي نضيفها للعالم هي صورة خلقتها وسائلنا الخاصة في المعرفة، وهي من تكوين الذهن الإنساني المشبع والمحمل بخلفيات ثقافية اجتماعية.

جعل "نيتشه" المعرفة تخضع لإرادة القوة، ومقياس الرغبة في المعرفة يعتمد على هذه الإرادة، التي تجعل الموجود في متناول التفكير، لغرض الحفاظ على الحياة "فأداة المعرفة بأسرها هي أداة للتجريد والتبسيط، وهي موجهة من اجل السيطرة على الأشياء والإستلاء عليها وعلى هذا لا يوجد إدراك إلا بمقدار ما يكون نافعاً"[7] .

يتضح أن المعرفة عند "نيتشه" لا تعكس حقيقة الواقع بل تعكس إرادة معينة مدعمة بقوة تجعلها قادرة على تغيير المسار المعرفي حسب النفع والمصلحة، فالإنسان هو الذي يصوغ المعايير التي يقرر من خلالها قيمة الأشياء، ويضع أنساق يسميها بقواعد الفكر والمنطق فيصف بعضها بأنه

حقيقة والبعض الأخر بأنه زيف. فالمبادئ التي تعتمد عليها المعرفة مجردأوهام وأساطير وعقائد واستراتجيات، ابتدعها البعض ليبرر فشله وعدم قدرته على مسايرة حالات الصيرورة، والتغير الدائم التي تعرفها الحياة.

يرفض "نيتشه" كل الأفكار والمفاهيم التي يدعي أصحابها بأنها أزلية ثابتة ومثالية "فيصف أفلاطون بمحنط الأفكار والمفاهيم المجردة البعيدة عن متغيرات الحياة والزمن والتي فقدت معناها، وأصبحت بدون جدوى مشبهً هذا الأسلوب بطريقة الفراعنة في تحنيط الكهنة والزعماء قصد تخليدهم".[8]فلا وجود لمعرفة حقيقية حسب المفهوم الأفلاطوني، كل المعارف من اختراعنا، واللغةالمستخدم في المعرفة مجرد خداع. فالمفاهيم المطلقة "المثل""الجوهر""الهيولي""الله" في نظر "نيتشه" غير موجودة في حد ذاتها، وما هو موجود تشكل من خلال تلك الشظايا المختلفة والمتفرقة من شتات المعطيات والتخيلات والتفاسير الفوضوية، التي نقوم نحن بتشكيلها وترتيبها حسب إرادتنا ونسميها في الأخير بالمعرفة. فالأشياء لا توجد لها قيمة في حد ذاتها لكن قيمتها تنتج عن فعل التقويم الذي يعبر به الإنسان عن رغباته وغرائزه، يعني عن إرادته للقوة فالإنسان هو الذي يحدد ما هو صحيح وما هو خاطئ، وهو الذي يعطي الأشياء معناها ويقومها ويجعلها إنسانية تابعة له، فالصيرورة هي الواقع الوحيد، ولكنها غير قابلة للإدراك أو المعرفة، ولا يمكن التعبير عنها بصدق لأنها تحمل التناقض ومنافية للواقع الحقيقي، الذي لا يدركه أحد، فلا يوجد وقائع معطاة لنا مباشرة، وإنما توجد تأويلات. يقول "نيتشه"لا يجب أن نبحث عن الظاهرتية في غير موضعها، فليس هناك شيء أكثر ظاهرية، وبتعبير أدق ليس هناك وهم أكبر من هذا العالم الخارجي الذي نراقبه بذلك الحس الباطني الشهير"[9]. هذه النزعة الشكية النقدية وجدت بكل معانيها في فلسفة "فيرابند" الذي يدعوا إلى إعادة التفكير فيما نعتقد أنه صحيح، وعدم الإيمان بالظواهر والقوانين المحيطة بنا دون فحصها، ونقضها والسعي لتغييرها، لأنها لا تحمل الحقيقة فالعلم باعتباره معرفة يمارس نوع من الاستبداد عندما ينصب نفسه معياراً للتمييز بين ما هو مشروع وما هو ممنوع، لكن في الأصل هو مشروع فوضوي، فلا وجود لنظرية علمية متماسكة خالية من شوائب الزيف واللاعلم. "فالعلم في نظره عمل فوضوي والفوضوية أكثر إنسانية من العلم، ومن المرجح أنها تشجع التقدم أكثر من البدائل المنهجية المتمثلة في القانون والنظام"[10].

إن النقد الذي وجهه نيتشه للمعرفة لا يخلو من نقده للعقل، وهنا يبدو تأثير "نيتشه" على "فيرابند" جلياً من خلال رفض مركزية العقل والتفتح على اللامعقول، فالفكر الفلسفي طيلة تاريخه آمنة بقدرة العقل في التحكم في العواطف والسلوك والسيطرة على الطبيعة وإعطاء الأولوية في تحقيق الوعي والتمييز بين ما هو حقيقي وما هو زائف وجعل بعض القدرات الأخرى كالإرادة والرغبة أفعال لاحقة بالعقل، ووضع تقاليد المجتمع وثقافته وفنونه ومعتقداته في خانة اللامعقول، هذا التصور الذي رسخته النزعة العقلية التي تبنت مركزية العقل مع "ديكارت"(Descartes) و"سبينوزا"(Spinoza) وغيرهم من دعاة العقلانية الدين تبنوا مركزية العقل. رفضه الكثير من الفلاسفة ابتداء من "شوبنهاور"(Schopenhauer)الذي أسس لتراتيب جديدة وضع الإرادة في قمة الهرم وجعل العقل تابع لرغباتها، "فالعقل في الفلسفات السابقة، مثّل القدرة التي يتجوهر بها الإنسان في الكون، وبه اعتبر غاية الوجود، وجوهره، وبأن الكون بأسره خلق من أجله فإن المعادلة ستنقلب مع "شوبنهاور"، الذي لم يتوان في الانقلاب عن العقل، وثانياً على الإنسان، ككائن ظل طويلاً يتوهم أنه حيوان عاقل"[11] .هذه الإرادة التي تحدث عنها "شوبنهاور" تبناها "نيتشه" ليفتح جبهة جديدة من الفلسفة، ويشق لنفسه حقلا معرفيا جديدا

قوامه النقد لكل الثوابت والقيم. ومن أهم انتقاداته تلك التي وجهها لمبادئ العقل، فينزع عنها صفة الحقيقة، ويعتبرها قوانين ذاتية خالصة تخضع لحركة الحياة وصيرورتها المتغيرة، "فمبدأ الهوية الذي ينص على بقاء الشيء على حاله ومطابقته لذاته دوماً، فإن هذا الأمر لا يتماشى مع حالات الصيرورة، فمبدأ الهوية وسيلة يصنعها العقل للاهتداء إلى نقطة واضحة خلال تيار الصيرورة الذي لا ينقطع"[12] .

يعتبر "نيتشه"أن مبادئ العقل مجرد أوهام يستخدمها الإنسان ليبرر نفعه من الناحية العملية، وهي لا تخرج عن إرادة القوة، وأكبر وهم أمانة به الناس هو العقل فلا نحتاجه في حياتنا، فهو يشكل خطر باعتماده الإقصاء الذي يمارسه على التقاليد الأخرى بحكم أنها لا تتماشي مع العقل ومبادئه. كما أنكر "نيتشه" الكثير من المفاهيم واعتبرها مجرد صيغ اصطلاحية، فالذات وموضوع، وعلة ومعلول، والجوهر والكينونة، كلها معاني لا وجود لها وهي من نتائج اللغة لا غير، ومجرد مقولات نحوية بعيدة عن الواقع وليست عقلية أو وجودية.أما بالنسبة لمقولة "الضرورة التي

تعتبر الركيزة الأساسية للعقل العلمي،فهي مجرد تعبير عن قوة ما. والغائية ما هي إلا نشاط من التفاعلات تعبر عن نظام القوة، ولا يوجد ما يسمي بالعلة أنها مجرد خوف من الأمور غير المألوفة إنها مجرد بحث عن المألوف، والقول بالعلة والمعلول ليس إلا محاولة لتنظيم العالم على نحو يجعله معقولاً ومقبولاً"[13].

إن حقيقة الوجود وجوهره يتناقض مع العقل الذي يدعي معرفة كل شيء، فلا يمكن معرفة العالم المتنوع والمتعدد بواسطة العقل المحدود، لأن معطيات الحياة ليست على نمط موحد مما يجعل العقول تختلف في تأويلاتها إزاء الأمر الواحد، والتأويل المشروع الذي يفرض منطقه وتفسيره هو التأويل الذي يمتلك مؤوله القوة، فيحقق نجاحاً يوصف بالحقيقة، لا يوجد عقل إنساني واحد، وإنما توجد عدة عقول تتمايز بتمايز الظروف والأحوال والإرادات، فتختلف الآراء باختلاف العقول، فالحقيقة الثابتة ليست في متناول إدراكات العقل، بل هو مجرد تعبير عن عناصر متلاطمة في الواقع، فكثير من الدوافعالمظلمة لا يدركها العقل، رغم ما يدعيه من عقلانية في تفسير الظواهر فالواقع يشهد حركة دائمة يسميها "نيتشه" بالصيرورة التي لا يستطيع عقل الإنسان احتوائها بصفة شاملة، فما يعرف بأنه حقيقة فهي من منظور معين لا تعكس حقيقة الواقع في ذاته بل تعكس حقيقة منطق القوة، أو كما يسميها "نيتشه"الحقيقة "الديونزية"[***].

يرى "نيتشه أن اللاعقلانية تمثل البديل لعلاج كل التصورات المنغلقة التي يعتقد أصحابها أنها تمثل الحقيقة "فالاعتقاد السائد بأن العقل الإنساني قادر على التوصل إلى علم يستطيع أن يزوده بمعرفة يقينية وانساق أخلاقية(أي أن يوسع العلم والعقل أن يحل محل الدين)هو وهم ليس إلا"[14].
يتخذ "فيرابند" موقفاً مماثلاً إذ يبين أن العقل غير قادر على إدراك المعارف بالصورة التي هي عليها، والعقلانية ما هي إلا قناع يستخدم من طرف أصحاب المذاهب والأيدلوجيات يجسدون بها مواقف خفية، ويمارسون السلطة لإقناع الآخرين، ويستخدمون البراهين العقلية حسب الحاجة يقول فيرابند:"إن البراهين العقلية التي يدعي أصحابها أنها عقلانية لا يمكنها أن تكون مقنعة إلا بالنسبة للأشخاص الذين هيئوا للاقتناع بها مسبقاً"[15].

يقترح "فيرابند" بدائل ضد الذوغمائية التي يمارسها العقل على أنماط التفكير المختلفة، ليثبت أهمية اللامعقول في تقدم العلم وتحرير الفكر من قيود العقلانية، لأن ذلك يفتح مجال التنافس

أمام مختلف التقاليد، الفنية والدينية والثقافية للمشاركة في عملية التطور، يؤكد "فيرابند" على أهمية انجازات الحضارات القديمة في ميدان علم الفلك والهندسة والطب. ويشير إلى"حقباً مشهورة في العلم يفخر بها علماء وفلاسفة، بل عامة الناس لم تكن عقلانية، فهي لم تحدث بطريقة عقلانية حيث أن العقل لم يكن هو القوة المحركة لها، ولم يتم الحكم عليها بصورة عقلانية"[16]. فالعلم ليس نظاماً معرفياً مقدساً ولا يشكل أرقي أشكال المعرفة، إنما هو ينمو ويزدهر وسط شتات منالأنظمة المعرفية الأخرى التي تحيط بنا، وتحركها عوامل الوعي الحضاري للمجتمع عبر مراحل الزمن المتواصل، وصيرورة الحياة كما يعبر عنها "نيتشه". فالعلم لا يمتلك تلك السلطة العقلانية المطلقة التي توجه باقي الأنشطة الاجتماعية، لأنه نتاج لتضافر نشاطات كثيرة إنسانية واجتماعية، لذا يجرد "فيرابند"العلم من سلطته المطلقة على المجتمع ويدعو إلى تحرير المجتمع من سلطة العلم، ويضع مجال المعرفة أمام المنافسة الحرة اتجاه كل التقاليد، وهذا تماشياً مع النزعة الفوضوية التي يري فيها حلاً لتجاوز الأطروحات المنغلقة التي عرفتها الاتجاهات المعاصرة في فلسفة العلم سواء، داخل النزعة التحققية[****] التي دعت إليها جماعة "حلقة فينا"[*****] أو النزعة التكذيبية،كما دعي إليها "كارل بوبر"(karl popper).

إن العالم الذي دعي إليه "نيتشه" هو نفسه العالم الذي تبناه "فيرابند"عالم بدون مركزية ولا سلطوية، فلا يوجد عقل إنساني واحد متكامل وشامل يصدر أحكام كلية على حقائق الوجود، فالعقل ليس مستقلاً عن العناصر المحيطة به في الواقع، فالمنطق والأفكار الثابتة لم تكن ثمرة رغبة في المعرفة الحقيقية، وإنما الدافع الحقيقي من وجودها هي السيطرة والامتلاك، يقدم "فيرابند" تفسيراً مشابهاً، فهو يدعوا إلى تحرير العلم من سيطرة السلطة، وفصل السياسة عن العلم، لقد تم تقديس العلم إلى درجة أنه أصبح الوسيلة الوحيدة لحل كل مشاكل الإنسان، وفك كل أسرار الكون، فأصبح العلم عقيدة قوية، أدت إلى إقصاء أنساق معرفية أخرى وصفت باللاعقلانية، ومن تم أصبح العقل العلمي هو المصدر الوحيد للتطور المادي والتشريع الاجتماعي والأخلاقي وتعالت صيحات تدعو إلى علمنة السلوك البشري وثقافة المجتمع، كمحاولة لمراقبة النشاط الإنساني والاجتماعي، كما هو الأمر في ميدان الطبيعة، فالعلم هو نتاج لجهد اجتماعي يشارك فيه جميع

أفراد المجتمع، يقول"فيرابند": "فعندما يتولى الرجل العادي الإشراف على العلم، يضحي العلم والعلماء خاضعين للمجتمع، وليسوا أسياداً عليه"[17]

كما يرفض "فيرابند"القول بالمنهج الصارم الوحيد في المعرفة العلمية، ويشيد بالتعدد والاختلاف الذي يمكن الفرد من إبراز طاقاته، ويسمح له بالمشاركة في أي انجاز علمي أو معرفي، وهذا ما أشار إليه "نيتشه" من قبل، إذ يلح على ضرورة اكتساب معاني جديدة وأطروحات غير مألوفة تحل محل الثابت المقدس، وتخترق مجال اللامعني واللاعقل، وتسقط جميع التأويلات التي أصبحت تلف العالم والوجود، فالقول بالحقيقة المطلقة وبالمنهج الصارم هو ضرب من ضروب التعصب، يقول نيتشه "لقد تم استعمال وتشجيع الحقيقة، أعني المنهج العلمي، من طرف أولئك الذين خمنوا فيها أداة حرب عملاً هداماً... ولكي يتم الاعتراف بهم كخصوم احتاجوا فضلاً عن ذلك إلى أداة شبيهة بتلك التي استخدموها:-كانوا يظهرون فكرة الحقيقة بشكل مطلق مثلما يفعل خصومهم-أصبحوا متعصبين"[18].

إن "نيتشه"لا يعترف بالحقيقة الموضوعية، ويعتبرها مجرد اختراعات من إبداع العلماء والفلاسفة لأسباب ذرائعية ونفعية، فلا يمكن اعتبارها نموذجاً للمعرفة الحق فهي لا تعكس الواقع على حقيقته، فلا علاقة بين استنتاجات العقل الفلسفي والعلمي وبين الواقع، إن العقل حسب "نيتشه" سواء في شكله الفلسفي أو في شكله العلمي الرياضي غير قادر على استيعاب المظاهر المختلفة للوجود، والحياة ولا الإحاطة بها ولا تفسيرها موضوعياً، يقول "نيتشه": "إن الإنسان الموضوعي مرآة متعود على الرضوخ لكل شيء يريد أن يعرف"[19] .ففهم الوجود لا يكون على المستوي النظري، بل يستخلص من معايشة المظاهر وهي تختلف باختلاف الاعتقادات والتصورات، فالعقل لا يمكنه فهم كل مستويات الحياة، خاصة تلك المرتبطة بالرغبة والعاطفة، فالإنسان يحي مستوي أخر مغاير لمستوي العقل الموضوعي، يتمثل في مختلف التقاليد الأخرى، فدراسة الفن والموسيقي والمسرح، وكل مظاهر الحياة المتعددة التي يعيشها الإنسان لاتخضع بالضرورة للتفسير العقلي الموضوعي.

تجسد هذا الطرح في فلسفة "فيرابند"من خلال رفضه للموضوعية التي يري أنها جردت الإنسان من إنسانيته، مقترحاً الفوضوية كبديل لها، لأنها تقدم الفرص لكل الأفكار والتقاليد لكي

تنموا على قدم المساواة، دون تعطيل إحداها بداعي الموضوعية، فلا يمكن أن ننقل الواقع بصورة موضوعية كما هو، بل نصفه من خلال تصوراتنا الخاصة المحمل بالطابع الثقافي والاجتماعي، لذا فالقول بالموضوعية لا أساس له من الحقيقة، لأن الباحث لا يمكنه أن يتجرد من هذه التصورات، ومن طابعه الذاتي، فأصحاب التصورات المختلفة يقولون بالموضوعية لإطفاء صفة الشرعية على أفكارهم لا غير، فكل تصور أصبح يصف ما يقوله بالموضوعية، ويصفون أفكار غيرهم بالذاتية. فتطور العلم يقتضي عدم التمسك بفكرة الموضوعية،لأن ذلك سوف يؤدي إلى إقصاء الكثير من النظريات بحكم أنها غير موضوعية، فالعلم في نظر "فيرابند" "ذو طابع إنساني ومن الطبيعي أن تؤثر فينا الذاتية الإنسانية، وإذا أردنا أن نكون موضوعين، فإن ذلك سيكون على حساب إنسانيتنا"[20] لكن ومن جهة أخرى فإن"فيرابند"يرفض أن نربط العلم بالإرادة الإنسانية، والتي هي إرادة لتحقيق مصلحة ما، "أصبح أساس العلم المصلحة الإنسانية، وبدا فقَد العلم عقلانيته الموضوعية في الطبيعة وصار تابعاً لقرارات الإرادة الإنسانية ومصالحها، فهي كأية إيديولوجية تصدر عن الإرادات الإنسانية"[21].

**خاتمة:**

من خلال التحليل السابق يظهر مدي قوة تأثير فلسفة "نيتشه على أفكار"فيرابند" فإن كان "نيتشه" قد وجه مطرقته على كل القيم الاجتماعية والأخلاقية، فإن "فيرابند" استعارة منه هذه المطرقة لوجهها وبنفس الطريقة، على العقل والعلم والمنهج. ليشق طريق البحث اتجاه مساءلة العقل وفتح مجال اللامعقول، والسبب يعود إلى ممارسات العلماء في ميادين البحث، التي لم تتمكن من الوصول إلى الحقيقة العلمية.

**الهوامش:**

**1-** البكاري كمال،ميتافيزيقا الإرادة،أرخياء المعني في الذات والسلطان،دار الفكر العربي، بيروت،ط2000،1م،ص75.

*مبدأ كوني يحدث التناهي في الأشياء،ويبرز ذلك موجودية الوجود بمعني أن قيمة الأشياء تتغير تبعاً لتحول اعتبار الموجد، فالشيء يتخذ معني مغاير كلما غير المؤول من الزاوية أو المنظور الذي يؤول من خلاله.

- انظر أويغن فنك، فلسفة نيتشه،ص220.

**2-** Feyerabend Paul. Adieu la raison.tr de l'anglais par B. Jurdant edition –seuil.paris 1996.p341.

3-عبد السلام صفاء علي جعفر،محاولة جديدة لقراءةفريدريك نيتشه،دار المعرفة الجامعية،الإسكندرية،مصر(د ط)1999م،ص294.

4-العتيري رجاة، جدلية المعقول واللامعقول،دار سحر للنشر، تونس،(د ط)2001مص49

**الإسم الكامل نوروود راسل هانسون،فيلسوف علم أمريكي ذو نزعة براغماتية(1924-1967).

5-لدفيج فتجنشتين،رسالة منطقية فلسفية،ترجمة د عزمي اسلام،مكتبة الأنجلو المصرية(د ط)1968م،ص64.

6-feyabend paul ; (problems of ampiricism) in beyond the edge of certainly;ed;by;r colodny;prentice-hall Englewood cliffs;1966;p220.

7-عبد السلام صفاء علي جعفر،محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه،مرجع سابقص294.

8- بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه ومهمة الفلسفة، قلب تراتيب القيم و التأويل الجمالي للحياة،دار العربية للعلوم ناشرون،ط1 2010م،ص130.

9- نيتشه فريديريك،إرادة القوة، محاولة لقلب كل القيم، ترجمة وتقديم محمد الناجي،أفريقيا الشرق،المغرب،(د ط) 1991م،ص202.

10- فيرابندبول،ضد المنهج،ترجمة ماهر عبد القادرمحمد علي، طبعة للطلبة،2005 م،ص21.

11- بلعقروز عبد الرزاق، نيتشه و مهمة الفلسفة، مرجع سابق، ص39.

12- عبد السلام صفاء على جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريديرك نيتشه، مرجع سابق،ص299.

13- عبد السلام على جعفر، محاولة جديدة لقراءة فريدريك نيتشه، مرجع سابق،ص 300.

***هي الحقيقة التي يؤمن بها الرجل الأعلى المتفوق.

14-عطية أحمد عبد الحليم، نيتشه وجدور مابعد الحداثة، دار الفارابي، بيروت،(ط 1)،2010م،ص173.

15-Feyerabend paul .adieu la raison.op.cit.p341.

16- فيرابند بول،ثلاث محاورات في المعرفة،ترجمة محمد أحمد السيد،نشر منشأة المعارف الإسكندرية (د ط)(د س) ص208.

****هو جملة العمليات التي تضع بها فرض من الفروض موضع الفحص التجريبي وينصب بوجه عام على حالة معينة.انظر المعجم الفلسفي مدكور براهيم ص170.

***** نشأت حلقة في فيينا عام 1922م،لغرض مناقشة الأفكار العلمية والفلسفية،مبدأها العام ما أقره العالم أرنست ماخ،ومؤداه أن العلم أساسه وصف للتجربة والخبرة،ترأس هذه الحلقة موريس شلينك،أستاذ العلوم الإستقرائية بجامعة فيينا،سميت فيما بعض بالوضعية المنطقية،حيث لعبت دوراً بارزاً في تشكيل طابع التفكير العلمي والفلسفي،من أهم روادها كارل ناب،فتجنشتاين،نيرات، فيكتوركرافت.

17 -عوض عادل،الإبستمولوجيا بين نسبية فيرابند وموضوعية شالمرز،دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر،(ط 1)2004م ص55.

18 -نيتشه فريدريك،إرادة القوة،مرجع سابق،ص195.

19-نيتشه فريدريك،ماوراء الخير والشر،تباشير فلسفية للمستقبل،دار الفرابي،(د ط)1885م،ص161.

20-Dissake emmanuel mallalo.ferabend.epistémologie anarchisme et societé libre ;paris :puf.2001 ;p66.

21-حاج اسماعيل،حيدر، بنية الثورات العلمية،دراسة منشورة في مجلة الاعرب والتفكير العلمي، العددان الثالث والعشرون والرابع والشرون،بيروت،2008م،ص112.